امالي السنة : ٣

الحجّ والرقص

بقلم الاب مرمرجي الدومنيكي
من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

٢

ه على ان الساميين ، وخصوصاً عصرَ كانوا من اهل البادية ، كانت الاعياد تتم عندهم في الاسواق ، وبعض المزارات او المقادس اي البيوت المقدسة او الهياكل . واذ كانت الزيارة تستلزم الانتقال الى المحل الذي يزار ، جاءت كلمة «حجّ» بمعنى القصد او التوجه الى المكان المقدس الذي فيه يقام الاحتفال او العيد بمناسكه ، واهمها الطواف او الرقص حول الصنم او مذبحه او هيكله . والشريعة الموسوية كانت تأمر اليهود بالحضور امام الرب لزيارة هيكله ثلاث مرات في السنة[1]

وبهذا المعنى الاخير قد وردت كلمة «الحج» في العبرية ، والسريانية ، ولاسيما في العربية ، كما نوهنا به في صدر المقال ، وفضلاً عن العرب الوثنيين ، قد سمعت في كلام العرب النصارى ؛ فانهم اطلقوها على الحفلات الدينية ، وزيارة

١) اعياد اليهود المهمة ثلاثة ، الاول : عيد الفطير ؛ ويدعى بالعبرية : (Hag ha maççot) الثاني : عيد الاسابيع او عيد الحصاد ؛ وبالعبرية : (Hag ha qaṣir او Hag ha šabu'ôt) الثالث : عيد المظال او جني الاثمار ، وبالعبرية : (Hag ha asif او Hag ha sukkôt) راجع ، في ذا الشأن ، سفر الخروج ٢٣ : ١٦ ؛ وسفر التثنية ١٦ : ٨ ، ١٠ ، ١٦ ، ولاسيما عدد ١٦ وهو : «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكرانك امام الرب الهك في الموضع الذي يختاره ، في عيد (hag) الفطير ، وعيد (hag) الاسابيع ، وعيد (hag) المظال ؛ ولا يحضروا امام الرب فارغين . » ومما يجدر بالذكر ان كل واحد من هذه الاعياد المختلفة تسبقه كلمة (hag) في النص العبري ؛ وما ذلك الّا للدلالة على ما كان مهماً في العيد ، اي الرقص الديني ، وهو المسمى في الاصل (hag) ، فاطلق على الاحتفال والاجتماع ذاته .

الاماكن المقدسة ، كبيعة او كعبة نجران. قال ياقوت عن دير نجران (معجم البلدان ٢:٧٠٣) ان بني عبد المدان بنَوه مربعاً ... فكانوا «يحجّونه» هم وطوائف من العرب ممن يُجل الاشهر الحرم ، ولا يحجّ الكعبة. ويحجه خثعم قاطبة» وقد استعملها ابن القلانسي في كتابه ذيل تاريخ دمشق (ص ٦٩) لزيارة بيعة القيامة «هذه بيعة... تعظمها النصارى افضل تعظيم «وتحجّ» اليها عند فصحهم.»[1]

فاذا عرفت هذا ، اعلم ان العرب لم يختلفوا في مناسكهم عن اخوانهم الساميين كاليهود والارميين . فقد كان من عادتهم الرقص الديني ؛ الّا انهم لم يسمّوه حجاً [2] ، بل دعوه دواراً او طوافاً. دونك شهادة ابن الكلبي في صدد ما ذكرناه ، قال : «وكان الذي سلخ بهم (اي العرب) الى عبادة الاوثان والحجارة انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الّا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابةً بمكة . فحيثما حلوا وضعوه «وطافوا به كطوافهم بالكعبة»[3] وقال ايضاً «واستهترت العرب في عبادة الاصنام ؛ فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ؛ ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت ، نصب حجراً امام الحرم وامام غيره مما استحسن ؛ ثم «طاف به كطوافه بالبيت» وسمّوها الانصاب»[4] ثم زاد في موطن آخر ، مسمّياً الطواف «دواراً» :

---

١) نقلاً عن كتاب النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، لشيخو ، ص١٧٩ .

٢) بل قل سمّوه «حجاً» بما ان العمل الدالّ الحرفُ عليه كان مسروناً ومتداولاً بينهم؛ وله اسمان آخران وهما « الدوار والطواف». ولكن اهل المعاجم لم يدوّنوه ، اما لتنقّب المنى الاسلامي ، واما تعمّداً ، لاستنكافهم ، وهم محمّديون ، من ذكر الرقص الوثني في جملة مناسك احد اركان دينهم ؛ كما ترى من المنقول ، في متن المقال ، عن تاج العروس بان الزمخشري وغيره كرهوا ان يستعملوا لفظة «الدوار» للطواف بالبيت . وكأني بهم قد نسوا او تناسوا ان الحج عينه ، بجمع مناسكه ، اي رقصه وغيره ، كان « وثنيًا » فجعله محمد «اسلامياً.»

٣) كتاب الاصنام لابن الكلبي ، طبعة مصر الاولى ، بتحقيق الاستاذ احمد زكي باشا ص٦

٤) كتاب الاصنام ص ٣٣ . — وحتى اليوم ، في الرقص الجاري ابان «موسم النبي موسى» عند المسلمين ، في القدس ، قيد بقي اثر لهذه الانصاب او الاصنام التي كان العرب القدماء يدورون او يطوفون (او قل يحجّون) حولها اي يرقصون ؛ وهذا الاثر « نُصُبٌ حيّ» الا وهو المزمّر بالشبّابة او المطبّج ، القائم في الوسط وحوله تقوم حلقة الراقصين.

« وكانت للعرب حجارة غُبْر منصوبة ، يطوفون بها ويعتّرون عندها ، يسمّونها الانصاب ، ويسمّون الطواف بها « الدوّار » . وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل : (وقد اتى غنيّاً بن اعصر وهم « يطوفون بنصب لهم » ، فرأى في قيامهم جمالاً . ومن يحلفن به . فقال) :

« الا يا ليت اخوالي غنيّاً عليهم ، كلما اسموا ، دوارُ » (١

وقد ذكر صاحب التاج من شعر امرئ القيس هذا البيت ، المدعو فيه «دوارًا» نفسُ الصنم الذي كانوا يطوفون حوله :

«فمنّ لنا سربٌ كأن نعاجه عذارى « دوارٍ » في ملاء مذيّل

اراد بالسرب البقر ، ونعاجه اناثه . شبّهها في مشيها وطول اذنابها « بجوار يَدُرْنَ» حول صنم ، وعليهن الملاء المذيّل ، اي الطويل المهدّب . قال شيخنا : قيل انهم كانوا يدورون حوله «اسابيع»(٢ كما يطاف بالكعبة . ونقل الخفاجي عن ابن الانباري : حجارة كانوا يدورون حولها تشبيهاً بالطائفين بالكعبة . ولذا كرِه الزمخشري وغيره ان يقال «دار بالبيت» بل «طاف بالبيت»(٣

فالظاهر اذن ان الطواف او الدوار مرادف لكلمة « الحج او الحكّ » في اول معانيه واعرقها قِدماً ، اي معنى الرقص الديني حول الحجارة والنصب او الذبيحة (٤ او الصنم او البيت او الكعبة . وهذا الذي كان جارياً في الجاهلية

---

١) كتاب الاصنام ، ص ٤٢

٢) الاسابيع جمع اسبوع ؛ وهو مأخوذ من الحرف السرياني «شابوع» الدال على السبعة من الايام او غيرها . ومعناه هنا ان كل مرة كانوا يطوفون حوله . وكذا القول عن الكعبة . كانوا يدورون سبع دورات .

٣) تاج العروس ج ٣ ، ص ٢١٥ و٢١٦ .

٤) وَصَف القديس نيلس (من اهل القرن الرابع) (راجع مجموعة الآباء اليونانيين لمين ، المجلد ٧٩ العامود ٦١٢) كيف كان عرب شبه جزيرة سيناء يجرون الطواف (اي الرقص) حول الضحية . ويستدلّ من كلامه ان هؤلاء القوم لم يكونوا يعبدون الماً ولا يكرمون صورة او صنم اله ، بل كانوا يذبحون او يضحّون لنجم الصبح عند طلوعه . فكانوا يأتون بجمل ابيض يُذبحونه ويشرعون بالدوران حوله (اي يحتّون) على نغمات المثنين والمزمرين . وعند الدورة الثالثة ، يضرب زعيم «الماج» بسيفه احدى عضلات الجمل ، فيرتشف من دمه ، ويتبعه الحاضرون ، فيأخذ كل منهم قطعةً من الجزور ، حتى لا يدعوا منه شيئاً باقياً ، لا لحماً ولا عظماً ولا جلداً ، قبل شروق الشمس .

قد ابقاه النبي في الاسلام. وحتى اليوم ، على ما ذكر البتنوني ، من عادة البدو ، ولاسيما اهل الشروق ، من عتيبة ومطير ، عند وفودهم الى مكة ، في الخُمس الاول من ذي الحجة ، ان يدخلوا المسجد الحرام جماعات جماعات ، فيطوفوا طواف القدوم ، ماسكين بعضهم ايدي بعض ، لا يوقفهم زحام المطاف بغيرهم بل ياخذون في طريقهم كل من صادفهم فيه ، وهم يقولون «الله ، محمد . لبيك، لبيك ؛ حجّيت تَقبّلْ أو لا تقبلْ ، حجّيتْ ، الا تقبل . » واذا كان معهم نسوة ، تراهنّ في مؤخرتهم ماسكات باكتافهم . زد على هذا ان الحُمس (اي المتشدّدين من قريش ، ايام الوثنية) كانوا يجبرون الحجاج على ان لا يطوفوا الّا بثيابهم ؛ (اي ثياب الحُمس) فان لم يجدوا ، طافوا عراة بالبيت. وكانت المرأة في طوافها تضع عنها ثيابها ، الا درعها ، او رَهْطَها.[1] وهذا كله من قبيل الرقص الديني عند الساميين.

اما الحج بمعنى القصد الى مكة للنسك فكان عادة في الجاهلية انزلها محمد منزلة احد اركان الدين الاسلامي . وهاك ما جاء به في قرآنه ، في ذا الشأن:

« واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئاً ، وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السجود . وأذّن في الناس بالحج ، ياتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق . . . ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم ، وليطوّفوا بالبيت العتيق.[2]

«واتموا الحج والعُمرة لله ؛ فان احصرتم ، فما استيسر من الهدى ؛ ولا تحلقوا رؤوسكم ، حتى يبلغ الهَدْي محلّه . . . الحج اشهر معلومات ؛ فمن فرض فيهن الحج ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال . . .[3]

« واول بيت وضع للناس للذي ببكة ، مباركاً وهدًى للعالمين. فيه ايات بينات ، مقام ابراهيم ؛ ومن دخله كان آمناً ؛ ولله على الناس حج البيت من

---

١) الرحلة الحجازية ، لمحمد لبيب البتنوني ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ . ولسان العرب ج ٩ ، ص ٢٧ .

٢) سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ .

٣) سورة البقرة : ١٩٦ ، ١٩٧ .

استطاع اليـه سبيلًا ؛ ومن كفر ، فان الله غني عن العالمين.»[1]

وادعاماً لهذا جاء في الحديث: «بُني الاسلام على خمس: شهادة لا اله الّا الله وان محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلًا»[2]

وحدّ الحج شرعاً: القصد الى بيت الله الحرام ، باعمال مخصوصة ، واوقات مخصوصة ، والحج نوعان: الحجّ الاكبر ، وهو حجّ الاسلام ؛ والحجّ الاصغر ، وهو العُمرة. وافعال العُمرة شرعاً اربعة: الاحرام ، الطواف ، السعي بين الصفا والمروة ، الحلق ؛ ويمكن للمرء اتمامها وحده ، وفي ايّ وقت كان من السنة. اما الحجّ الاكبر ، فلا يجري الّا في اوائل ذي الحجة ، مع الحجّاج ؛ وافعاله هي عين افعال العُمرة ، يزاد عليها الوقوف في عَرَفة ، ورمي الجَمَرات ، ونحر الهدي.

* * *

زبدة المقال : «الحج او الحكّ» كلمة ثنائية الاصل (وان كانت في عرف النحاة ثلاثية ، اي ح ج ج) وهي اسم صوت يدلّ على اجهاد النفس ؛ انتقل معناه الى معنى الرقص ، ثم الدوار ، (اي حلقة الراقصين او عملهم) فالاحتشاد ، فالمرسم ، فالعيد ، فالقصد ، فالزيارة لاحد المقادس ، فالزيارة لكنيسة نجران عند نصارى العرب ، فلكنيسة القيامة عند عامة المسيحيين ، فزيارة الكعبة المكية ، اولًا عند اهل الجاهلية ، ثم عند المسلمين. وعليه نظن ان من قال بقول صاحب «لغة العرب» بان لفظة «الحجّ» تدلّ من اصلها على «الاجتماع لغاية دينية»[3] قد استند الى المعاجم العربية التي لا تحوي من معاني هذه الكلمة الا بعضها والحديثة منها.

فقد رأينا ان هذا الحرف يراد به في اللغات السامية الرقص وانه مأخوذ من اسم الصوت الخارج من فم العامل المجهد نفسه كالحدّاد ، ومثله الراقص .

---

١) سورة آل عمران : ٩٠-٩٢ .

٢) صحيح البخاري : ج ١ ، ص ٦ .

٣) «لغة العرب» ، سنة ٦ ، جزء ١ ، ص ٦٦ .

اجل ان بعض الرقص يتطلب الانضمام ، الا ان هـذه الكيفية ليست من ضرورة قوامه ، لانه لا يمكن للمرء ان يرقص وحده ، كما ظهر من مثل بنت يفتاح ، وبنت هيرودية . فضلاً عن هـذا فان الزفن ليس بمقصور على الحفلات الدينية ، بل يقع غالباً في الاحوال المدنية[1] . زد على ذلك ان ليس هناك من دليل على ان الحجّ الجـاهلي او الحجّ الاسلامي يستلزم الاجتماع «من باب الحصر» فقد عرفنا ان الحج الاصغر او العُمرة يسوغ للرجل اقامها منفردًا ، وفي اي فصل من فصول السنة ، فالالتئـام اذن ، بذات حده ، ليس من جوهر معنى كلمة «الحجّ» ؛ انما هو صفة خاصة تضاف اليه ، فتكيفه بكيفية لم تكن فيه ، فتنوعه . ومثله كمثل الصلاة والدرس واللعب ؛ فان كلًّا منها لا يتضمن معنى الانضمام ، اذ يمكن اجراؤه على حدة . ولا يزاد عليه هذا المدلول الّا اذا اكمل باشتراك اشخاص كثيرين فيه ، كما لو صلّى النـاس صلاة الجماعة في الكنيسة او الجامع ، او درس التلاميذ معاً في حلقة احد الاساتذة ، او لعبوا لعبة كرة القدم او غيرها . فكذا الحج يتصف بصفة الاجتماع فيدلّ على معناه اذا ادّاه كثيرون معاً ، واذا كان احد المعاني المتفرعة عن اصله يتطلب وجود الجمهور . مهما يكن من الامر ، فلا تكون ، اذ ذاك ، دلالة «الحج» على الاجتماع الا دلالةً ثانوية ، مجازية .

هذه هي «نظريتنا» في اصل لفظة «الحجّ» ؛ بسطناها بطريقـة تحليلية منطقية ، ألسُنية . وهي ، وان كانت غير مألوفة عند علماء اللغة العربية ، الّا ان املنا وطيد انها تسترعي انظار اهل الدقة والاختصاص . وعسى هذه الدروس الالسنية تنشئ رغبةً في نفوس نخبة من شبّان بلادنا المتعشقين العلم ، فيقبلوا على دراسة «الالسنية السامية» التي هم اقدر عليها ، واحرى بهم مزاولتها من ابناء الغرب المبرّزين فيها ، وان كانوا غرباء عنها ؛ لان موضوعها يفرض معرفة

١) عند بدو جزيرة سيناء ضروب من الرقص يشترك فيها الكثيرون ، ويمكن ايضاً ان ترقص فيها غادة وحدها بحضور الرجال والنساء ، وهي تدعى «الحاشية» . وهـذه اسماء انواع الرقص عندهم : الدَحيّة ، السامر ، المتوجار ، الرَزعة ، المَسرقية ، وكلها تجري في احوال اجتماعية لا مرجع لها للدين ، ولا للدين دخل فيها . (راجع تاريخ سيناء ، لنعوم بك شقير . ص ٣٨ وما يليها) .

اللغات السامية ، اي لغاتنا ولغات اجدادنا الساميين. وبذلك يتحقق متمنى العلّامة الاستاذ المغربي[1] الموقن والشاعر بان مقابلة الالسن السامية او «الالسنية السامية» من انفع العلوم لحلّ شيء كثير من غوامض القرآن ، وللاطلاع على اصول الالفاظ العربية ، والفاظ باقي اللغات السامية . ونظن ان هذا المقال ، بما تنتج عنه من النتائج ، جاء مصداقاً لرأي حضرة الاستاذ ورأينا .

تذييل

قرأ السيد فردينان ايلا اول قسم من مقالنا هذا ، فتفضل بان ارسل الينا ، في القدس ، بالشواهد التالية ، تأييداً لقولنا . فحالاً بعثنا بها الى ادارة مجلة «المشرق» الغراء طالبين اثباتها في الحاشية . وتؤدي الشكر لسنرة سيدنا الكريم . ودونك كلامه بحرفه :

«الحج والرقص»

« لم يزل الشعب المصري ، حتى اليوم ، يقول « فلان يحجّ» ان هو هزّ جسمه «يمنةً ام يسرة» او من الامام الى الوراء. وبالعكس . كنت يوماً اطالع كتاباً لذت لي مطالعته ، فكنت اترنّح بتلاوته ، واهزّ رأسي ، بصورة غير منقطعة ؛ فدخلت عليّ فجأةً حماتي وقالت لي : «مالك تحجّ »

«ورأيت امرأة مصرية ترقص ولدها بين يديها ، وهي تقول له ، لاستدراجه : «حج ! حجيج ! (Heg , Hgeg).

« في حلقة «الذكر» اذا تعب الدراويش ، في روحاتهم واهتزازهم ، صاروا يرددون ، بدلاً من الدعاء ، او الغناء ، او ترديد الاسماء الحسنى ، «الله حي ! الله حي ! » وهم ينطقون بكلمة «الله» بصوت خافت ؛ ويتنفسون بملء صدورهم تنشيطاً لانفسهم في رقصهم المتعب . وكل هذا جاء مصداقاً لملحوظاتكم» اهـ.

فردينان ايلا

بمصر

---

١) مجلة المجمع العلمي العربي (١٩٢٣) مجلد ٣ ، جزء ٣ ، ص ١٧ .